دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

غيرية المدينة الغربية
في مدونات الرحلة العربية للقرن التاسع عشر

د. عادل النفاتي
باحث في التاريخ الثقافي المغاربي والمتوسطي
مخبر التاريخ الاقتصادي للمتوسط ومجتمعاته
جامعة تونس – الجمهورية التونسية

مُلَخّص

بعد قرون من الانعزال وضعف التواصل بين ضفتي المتوسط، بسبب انكفاء العرب خلف أسوار ضفاف المتوسط الجنوبية، والانشغال بأحوالهم والانقطاع عن العالم الأوروبي – باستثناء بعض الرحلات العربية والسفارات القليلة خارج ديار العالم الإسلامي –، والذي عزاه كثير من الباحثين إلى ارتدادات الصدمة الكبيرة التي خلّفتها ندوب الحروب الصليبية وما تركته من انطباعات سلبية في النفسية العربية من جهة تجاه الأوروبيين، وكذلك إلى تراجع مكانتهم في المتوسط بعد أن أصبحت الريادة فيه منذ القرن السادس عشر لصالح الأتراك والإسبان من جهة ثانية. ولكن ومع تغير السياقات الدولية التي بدت علاماتها منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، عجّلت البلاطات العربية إلى إرسال موفديها وسفرائها وبعثاتها التعليمية وحتى المغامرين في مهمات متنوعة إلى أوروبا لم تستثنِ وظيفة رصد مجريات الأمور هناك والوقوف عند التفسيرات المعقولة (البعيدة عن أدب الغريب والعجيب)، وشرح مظاهر قوة أوروبا ودعائمها. ففي هذا الخضم دوّنت عديد المؤلفات العربية مشرقا ومغربا متناولة للجوانب الحضارية للآخر الأوروبي، واحتلت فيها المدينة مكانة مركزية في العناية والوصف على اعتبار حيويتها البشرية وموقع اتخاذ القرار السياسي والاقتصادي على حدّ سواء، لذلك انصب اهتمام كتّاب الرحلة العربية في القرن التاسع عشر على وصف الغيريات الحضرية الغربية، فوقع التنبّه إلى غيريتين بارزتين تتعلقان باختلاف وقع الزمن في مدينة لندن وأثره في حياة الناس من جهة، وانغراس المعمار الفرنسي في التراث الإغريقي والروماني كوعاء حضاري قد تشكلت في رحمه الهوية الفرنسية من جهة ثانية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٨ أبريل ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ١١ مايو ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الرحلة؛ باريس؛ لندن؛ الآخر؛ الثقافة؛ المتوسط

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2023.333016

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عادل النفاتي. "غيرية المدينة الغربية في مدونات الرحلة العربية للقرن التاسع عشر".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الستون؛ يونيو ٢٠٢٣. ص ١٣٤ – ١٤٥.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: adel.nafeti@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدّمَةُ

مثلت المدينة موضوعا جذّابًا ومستساغًا في التراث الثقافي العربي منذ زمن كتابات الفارابي والجاحظ وابن خلدون، وكان مبحثا مركزيا في مؤلفات الرحلة العربية خلال ما عرف بالفترة الوسيطة، التي شهدت انتعاش الكتابات الجغرافية الموسومة حينها بـ «أدب المسالك والممالك». ولقد عاود نفس المشغل الأدبي في البروز من جديد في كتابات القرن التاسع عشر، وخاصة تلك التي اهتمت بتدوين الرحلات والسفارات إلى أوروبا. ففي تلك اللحظة عدّل الشرق بوصلته وانتباهه إلى أوروبا التي أضحت الفاعل الأوّل في تحريك الأحداث في كل من المتوسط والعالم، وبانت فيها علامات التوسع والتمدّد، وسعيها لتغيير الخارطة السياسية للشعوب بما فيها الأوطان العربية. ففي ذلك السياق الدولي انطلق عدد من الرحآلة والموفدين والسفراء العرب نحو الضفة الشمالية للمتوسط للوقوف على مدى تقدم آخرهم وأسبابه، ومحاولة رصد وتوصيف كل مجالات حياته وغيرياته الظاهرة والخفية، التي كانت في معظمها مجهولة لساكنة الشرق والضفة الجنوبية للمتوسط.

وصل هؤلاء الرحّالة إلى موانئ أوروبّا ومدنها وتركوا وراءهم مدنهم بتصاميم موروثة لم تشهد تحوّلات كبرى عبر الأزمنة. فطرقها مازالت ملتويّة ومنازلها متلاصقة وأزقتها متشابكة ومتداخلة، تلتقي أغلبها في طريق رئيسية صوب الجامع الكبير والسوق. فانتماء الرحّالة إلى المجتمع الحضري من جهة، والبون الشاسع مقارنة مع مكوّنات المدينة الأوروبية وانتظامها، وحركيتها الحثيثة التي لا تتوقف ليلا ونهارا، وانتشار معالمها الكبرى المميزة، على خلاف ما ألفوه بمدنهم من جهة ثانية، كانت أسبابا كافية لينصبّ اهتمام كتّاب الرحلة العربية على وصف المدن التي زاروها أو التي مرّوا بها، ولتحتل مكانة رفيعة في متونهم.

إن الاهتمام بالمسألة الحضرية الأوروبية، في واقع الأمر، وما عرفته من تجديدات وتحوّلات كبرى، كان محل متابعة عديد الكتّاب والأدباء والسياسيين ورجال الاقتصاد الأوروبيين منذ بدايات القرن التاسع عشر[1]. فقد طرح المتأملون والباحثون الغربيون في تطوّر المسألة الحضرية الغربية حينها عديد الإشكاليات والمقاربات بأشكال مختلفة: من نوع إيجابيات الظاهرة الحضرية الجديدة وسلبيّاتها، ومشاكل التحضر السريع المَرَضي، وتداعياته المختلفة على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، وأيضًا المشاكل التي تطرحها مغادرة المزارعين للأرياف وانعكاساته على تزويد المدينة بالغذاء وأسعاره، وغيرها من القضايا التي تصبّ في محاولة فهم ما جرى في المدينة الغربية من تقلبات مفاجئة.

طرحت هذه المسائل في زمن تميز فيه المجال الأوروبي بتطوّره اللافت في أحجام المدن وتوسعها، ما دعا الكثيرين إلى وسم القرن التاسع عشر بـ"قرن الطفرة الحضرية" في دول أوروبا الغربية بدرجة أولى وبوسطها بدرجة أقل، كنتيجة مباشرة لآثار التصنيع. فقد تمدّدت وقتها المدن أفقيًا وعموديًا، وانتعشت أفكار المهندسين والمصمّمين المعماريين وذائقتهم الفنية. فتمّ إحياء الأنماط المعمارية الإغريقية والرومانية العتيقة من جديد ودمجها مع الموروث المعماري والفني القوطي. وتحوّلت حينئذ المدن الغربية من مجرد حواضن للاستقرار البشري إلى معارض معمارية وفنية لحفظ الذاكرة الجماعية للشعوب، بعلاقة مع التحوّلات السياسية والثقافية التي عاشتها المنطقة في القرون الأخيرة من ثورات ورجّات قوّية لامست مجالات عديدة، مخُلخلة للثوابت والقناعات القديمة والسلوكات والذهنيات.

تجوّل الرحّالة العرب في أرجاء مدن أوروبا وحواضرها كمتابعين لحراكها الحثيث ولكن بعين أخرى مخالفة للعين الغربية، وبتمثلات مغايرة، تنطلق في أحكامها ومواقفها وانطباعاتها من الشرق وإليه تعود. فانجذبوا إلى كل ما بدا غريبا عن أعينهم فوصفوه، دون أن يسهوا عن إرفاقه بانطباعاتهم الذاتية عن معالم المدينة الغربية المغايرة لمعالم مدنهم التي نشأوا فيها. فبعد أن ألفوا مشاهدة معالم مشرقية معلومة: كالمساجد والمدارس والقصور والأسواق والأقواس والمتاجر والأضرحة وغيرها، ها هم في أوروبا واقفين مندهشين لرؤية معالم أخرى، ما جعلهم يلاحظون التجديدات الحاصلة في الهندسة المدنية والأنماط المعمارية.

فتراهم يقفون أمام العمران الأوروبي ويحصون الأعمدة والسواري والأبواب والشرفات والأقبية، والطرقات والجسور والمصانع والمتاجر والمؤسسات التعليمية والدينية، يدقّقون في نوعية المواد المستعملة في البناء والتزويق.

واهتموا أيضًا بحركية المدينة وشوارعها، وأنشطة سكانها المتنوعة وأنساق أعمالهم، وجدولة أوقاتهم في سائر الأيام وأيام العطل والأعياد. فكانت السرديات متشابهة حول ما تمت معاينته في جلّ مدن أوروبا الغربية والوسطى من حيث نوعية المباني وتخطيطها ونمط العيش فيها. ولكن هذا التشابه لم يحجب المكانة المركزية لعاصمتي فرنسا وأنقلترا في النصوص العربية، إذ استأثرتا بالنّصيب الأوفر من الوصف والتدقيق، لذلك رأينا ضرورة التركيز على دراسة الحاضرتين المذكورتين كمثالين معبرين عن تحوّلات المدينة الغربية في القرن التاسع عشر وتناول الإشكاليتين التاليتين: كيف نظر كتّاب الرحلة العربية إلى التصرّف الغربي مع الزمن؟ وكيف استوعبوا الظاهرة العمرانية الأوروبية؟

أولاً: مدينة لندن (حاضرة الغيرية الزمنية)

احتلت لندن مرتبة المدينة الأعظم والأكبر حجما في أوروبا وفي العالم طوال القرن التاسع عشر ديمغرافيًا واقتصاديًا، فقدّر الشدياق – وهو الذي قضى فيها مدة زمنية طويلة – أنّها من أغنى مدن العالم، ذاك ما دعاه لأن يهتم بوصفها، وأن تكون محور اهتمامه في مؤلفه "كشف المخبا". فبادر في البداية بوضع تقديم تاريخي للمدينة – كدأب الرحّالين العرب في السابق في وصف المدن- قبل الغوص في وصف حاضرها. فذكّر بعراقة لندن واسمها القديم لندنيوم، وأرجع تاريخ ظهورها إلى حدود سنة ١١٠٧ ق.م أي قبل بناء روما بحوالي ٣٥٤ سنة، واشتهار أهلها بممارسة التجارة والمبادلات[٢]. وانصب اهتمام الكاتب المصري أحمد زكي[٣] على وصف الموقع الجغرافي للمدينة وشساعتها، فتبيّن له أن لندن ليس مجرد اسم مدينة بل هو اسم "قطر واسع يعسر على الإنسان أن يقول أين مبدؤها وأين منتهاها، فقدّر مساحتها ب٣٥٠ كيلومترا مربعا من غير ضواحيها وأرباضها، وأن طولها من الشرق إلى الغرب ٢٥ كيلومترا، ومن الشمال إلى الجنوب ٢١ كيلومترا وطول طرقها ١٥٠٠ ميل[٤]. وتنبّه الكاتب لوصف نهر "التاميز"(Tamise) الشهير الذي يشقها إلى شطرين "أحدهما ليس فيه شيء يسر الناظر، فإنه عبارة عن ديّار وطرق وحوانيت، والثاني وهو الذي يقيم فيه الأشراف والأعيان يشتمل على أشياء كثيرة بديعة[٥]".

واشتهرت لندن أيضًا بضخامة الاستهلاك فيها وتطوّر المبادلات التجارية، ما يعكس أهمّيّة الزخم الديمغرافي، إذ تحولت منذ عقود إلى مدينة عالمية استقرت بها اثنيات مختلفة وافدة من جميع جهات أوروبا ومن خارجها، استجابة لحاجتها المطّردة لليد العاملة، فناهز عدد سكانها حوالي أربعة مليون نسمة وفق إحصائيّات أحمد زكي باشا[٦].

بدت لندن مدينة مفعمة بالحياة والنشاط "وفيها من الإقبال على الشؤون واغتنام الفرص ومعرفة قيمة الوقت ما يحير الأفكار ويبهر الأبصار[٧]". وتعزى هذه الحركية حسب ما تفطن إليه أحمد زكي باشا إلى حضور "الشركات والجمعيات وما بينها من المزاحمة الممدوحة والمناظرة المحمودة، هي روح هذه الحركة وأسّ هذا الارتقاء، فمهما نظر الإنسان إلى أي عمل من الأعمال رآه في يد شركة من الشركات وليس للحكومة دخل في شيء ما سوى المراقبة العالية والسيطرة المعنوية التي تجعل الجمهور في أمان من اغتيال هذه الشركات[٨]". كما أثنى الكاتب على احتفاء الأمة الأنقليزية بقيمة العمل والتكسّب، "فهم (الأنقليز) يعتبرون الفقر عيبا بخلاف سائر الأمم ولذلك يشتغلون كلهم مثل النحل ولو كان الرجل منهم ابن غني يملك القناطير المقنطرة فلا بد له من التكسب بعرق جبينه[٩]". كما بدت لندن لكتّابنا مدينة مفعمة بالحياة وكثيفة الحركة، فسكانها يقطعون يوميا المسافات الطويلة للالتحاق بأعمالهم، ممتطين وسائل نقل متنوّعة كالزوارق البخارية وعربات الأمنيبوس والقطار. ولاستيعاب ما يحدث في مدينة لندن من حركية ونشاط، فقد أحصى أحمد زكي في مدينة لندن " أكثر من ٥٦٨ محطة للسكة الحديدية أقل واحدة منها أكثر من محطة القاهرة الحالية اتساعا وحركة وعملا، ومنها ما يساوي محطة مصر والإسكندرية وطنطا ثلاث مرات في ثلاث

مرات ... وقد يمر في بعضها أكثر من ١٤٠٠ قطار في اليوم من غير احتساب قطارات البضاعة[١٠]".

لندن هي مدينة الأعمال والنشاط الحثيث، وأيضًا هي رمز المدينة النظيفة التي تعنى بتوفير المرافق الصحيّة لسكانها كالمرتفقات والمباول العمومية (دورات مياه عمومية) في جلّ الأماكن والشوارع، والتي كانت محل إعجاب المصري أحمد زكي الذي عاين "في جميع المحاط والمتاحف والآثار العمومية والأسواق المهمة والميادين التي بين الشوارع ... مرتفقات ومباول عمومية بعضها خاص بالنساء والباقي للرّجال وكلها في غاية النظافة ونهاية الاستعداد. وتضاء بالليل بالكهربائية وفيها الماء متساقط بإحكام على الدوام من أحواض ... وكثير من هذه المرتفقات متسع جدا وينزل إليها بدرج لأنها تحت الأرض، وإذا اضطر أحد لقضاء الحاجة ولم يجد المرتفق قريبا منه فله أن يدخل في أي دكان فطاطري (هكذا) ويدفع بنسا واحدا للخادم"[١١].

يقطع مدينة لندن عدد كبير من الشوارع النشيطة، كان قد توقف الشدياق عند ذكر أهمها مثل "الطريق الذي يقال له استراند (Strand) طوله ١٣٦٩ ذراعا وهو أكثر الطرق ملاهي، ثم بيكاديلي (Piccadilly) طوله ١٦٩٤ ذراعا، ثم نيورود (New Road) أي الطريق الجديدة طوله ٥١١٥(ذراع)... ثم نيو بوند ستريت (New Bond Street) ... ثم طرق أخرى حسنة أيضًا ولكنها ليست نظير هذه. وعدد الطرق المبلطة في لندن يبلغ ٥٠٠٠ وتمتد أكثر من ٢٠٠٠ ميل[١٢]". وما ساعد على حيويّة شوارع المدينة ليلا نهارا هو "كثرة الأنوار في الدكاكين والطرق، تكون المدينة في ليل شتاء أدفأ منها في النهار... والغاز في طرق لندرة يوضع في فوانيس على عمد قائمة من حديد، فهي من هذا القبيل أحسن من باريس لأن كثيرا من فوانيس هذه تجعل في الحائط إلا أنه ليس في طرق لندرة شجر ولا محال للقهوة على نسق ما في باريس[١٣]". ويستمر نشاط المدينة وحركيتها الحثيثة على نفس الوتيرة طيلة أيام الأسبوع، ما عدا يوم الأحد الذي يتخذ زمنية مخصوصة. فبعد أن تعوّد الرحّالون العرب في أوطانهم على أنساق أعمال يومية وأسبوعية وفصلية وسنوية مخصوصة وفق رزنامة مضبوطة ومتوارثة، منذ أزمنة ما قبل ظهور الإسلام. فكيف وجد كتّابنا نسق الأعمال اليومية والأسبوعية عند اللندنيين؟

استرعت وتيرة الأعمال اليومية عند الأنقليز باهتمام رحّالينا، فالأشغال بمدينة لندن وبقية المدن الأخرى تكاد لا تنقطع طيلة أيام الأسبوع، إذ تسير بوتيرة حثيثة، ماعدا يوم الأحد الذي يتفرّد بنسقه المميز. فهو ليس كسائر الأيام الأخرى، إنه يوم عطلة ويوم تفرغ للعبادة، ويوم شؤم عند أحمد زكي، فيبدأ الاستعداد لعطالة يوم الأحد منذ زوال يوم السبت فيقبل الناس على اقتناء حاجياتهم، ذلك أن "انفردت(لندن) عن سائر سكان الأرض بمراعاة الراحة المطلقة في يوم الأحد فهو عندهم يوم مقدس تنقطع فيه الأعمال مرة واحدة، وينقطع الأخذ والعطاء والبيع والشراء حتى فيما يتعلق بالقوت اللازم لحياة النفوس. ومتى أصبح الصباح، رأيت المدينة قفرا بلقعا ليس فيها سوى القليل من رجال الشرطة وبعض نفر منثور في شوارعها. وأما المخازن والأبواب والشبابيك وديار التحف والآثار والتياترات فكلها مغلقة، والعربات بجميع أنواعها يقل وجودها بالكلية، ... وكذلك الكمرك فإنه يحجز البضائع وأمتعة المسافرين الذين يقدمون إلى هذه البلاد في هذا اليوم المشؤوم[١٤]". وبعكس أحمد زكي، فقد بدا يوم الأحد للشدياق –وهو أصيل جبال لبنان الهادئة– يوم المتعة، فيذكر "أن في صباح الأحد في لندرة لذة لا تُقدّر ولا تنظّر بالنسبة إلى نحس الأيام الأخر، وهي قرقعة العجلات وسائر المراكب، فقد كنت أحسب نفسي في صباح كل أحد أني ساكن في الريف، فأما في سائر الأيام فإن توّالي هذه القرقعة داهية من أعظم الدواهي، فمن لم يتعود عليها لن يهنئه نوم ولا قعود ولن يمكنه أن يجمع أفكاره في رأسه[١٥]".

شدّد حكّام بريطانيا على ترسيخ عطلة يوم الأحد وجعله يوم تفرغ من جميع الأشغال بعد وضع قانون سنة١٨٦٠ المانع لجميع الأنشطة في ذلك اليوم بما في ذلك الاحتفالات والمبادلات التجارية. فيوم الأحد هو يوم إقامة الصلوات في مناسبتين، واحدة صباحية تدوم ساعتين، وأخرى مسائية وتدوم ساعة ونصفا حسب ما أكده الشدياق. ولقد استحال حرص أغلب شرائح المجتمع الأنقليزي على أداء صلواتهم – سواء أكان

اعتقادا فيها أو خشيّة سطوة المؤسسة الدينية ومضايقات الفضوليين- بالنسبة إلى الشدياق أمرا لافتا إلى حدّ إثارة السخرية، فقد أورد الكاتب مستملحة مفادها أن أحد سرّاق مدينة لندن كان قد سرق بقرة وتم توقيفه من قبل الشرطة يوم أحد، فقال السارق للشرطي أنه:" لولا حرمة هذا اليوم لما أعياني التملص من يدك".

وعلى عكس عطالة يوم الأحد كيوم مخصوص للعبادات، فإن ليلة السبت كما عاينها أحمد زكي باشا "في جميع أسواق لندرة هي ليلة البهجة والقصوف والفرح وهي أبهج الليالي، أمّا عند العليّة فلعلمهم أن اليوم القابل هو يوم الانقباض فينصبّون فيها إلى اللهو والخلاعة في جميع الأماكن المقصودة، وأمّا عند السفلة والفعلة فلكونهم آخذون أجرتهم في مساء كل سبت، فمتى انصرفوا من المشاغل أقبلوا على الحانات والحوانيت لشراء مؤونة يوم الأحد، فترى جميع الدكاكين غاصة بالرجال والنساء[١٦]. تبدأ احتفالية ليلة السبت بمدن انقلترا واوروبا عموما منذ المساء، إذ أشار ليون فوشي في مؤلفه "دراسات حول أنقلترا " إلى حركية مدينة ليفربول ليلة السبت. فتعلوها الضوضاء والجلبة في جميع أحياء المدينة تعويضا للصمت المطبق الذي يعيشه سكان المدينة طيلة أيام الأسبوع، حينها يكون الجميع منهمكين بأعمالهم ولا يبالون بأي شيء آخر. ففي ليلة السبت يغادر الجميع منازلهم، بمن فيهم الرجال والنساء والأطفال والنشّالون والمومسات، ويتّجهون صوب شوارع المدينة، فمنهم من يصطفّ أمام المسارح ومنهم من يقصد الحانات. وتفضل بعض النسوة الفرجة على الملابس الفاخرة والأنيقة من خلال ما يعرض في الواجهات البلورية. ومنهن من ينشغلن باستخلاص ديون الأسبوع الفائت واقتناء حاجيات الأسبوع القادم (باعتبار أن يوم السبت هو يوم دفع الأجور). ويتوزع المتسكعون والنشّالون وسط المجموعات بحثا عمّا يمكن أن يحصلوا عليه من جيوب السكارى. وتتم هذه الحركية والجلبة الكبرى أمام أعين رجال الشرطة الذين يكثفون من حركتهم لضمان أمن الجميع لكن دون الإفراط في التدخل حتى لا يحدّوا من حرية طالبي السهر والتسليّة. وفي منتصف الليل ومع حلول الساعة الأولى ليوم الأحد، ينفضّ الجميع إلى منازلهم، وتسمع دوي ضربات عصي الشرطة على قارعة الطريق إيذانا بضرورة استخلاص النفقات والمغادرة إلى البيوت[١٧]. كذلك كانت مدينة لندن التي لا تهدأ من فرط الأشغال الحثيثة في النهار وطالبي التسليّة والسهر في الليل، ما استوجب وضع جهاز أمني منظم قادر على تصريف أمور المدينة الأمنية. فقد استرعى انتشار أعوان الشرطة في شوارع المدينة ومحطاتها اهتمام الزوّار العرب فانجذبوا إلى حسن هندامهم وكياستهم في معاملة الناس وتوجيه التائهين وحماية الأملاك وفرض الانضباط ما جعلهم يحظون بالاحترام والتقدير عند الجميع[١٨].

هكذا صوّر الكتّاب العرب نسق الأعمال الأسبوعية واليومية في مدينة لندن، وأشكال حفظ الأمن والساهرين عليه، وهو بدون شك وضع شبيه بما وجد في بقية الحواضر الغربية، كنتيجة لسريان نفس التحوّلات الكبرى التي عرفتها القارة منذ قرون، فعمت غرب أوروبا ووسطها دون العالم العربي، لذلك عدّ ما شاهده رحّالونا من انتظام لمدينة لندن ونسق أعمالها في جانب منه ضمن العجيب والغريب للآخر الغربي الذي سطّر لنفسه منظومة زمنية مخصوصة تستجيب لحاجياته الجديدة.

ثانيًا: مدينة باريس (موطن الغيرية العمرانية)

شغلت مدينة باريس عقول الزوّار العرب وسحرت ألبابهم، فكانت أنموذجًا لتطوّر الظاهرة الحضرية للآخر المتقدم. لذلك مثلت العاصمة الفرنسية المشغل الأبرز في رحلة الطهطاوي وفي كتابه كما دلّ على ذلك عنوان مؤلفه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، حيث انبرى الكاتب في تعداد محاسن المدينة بوصفها لا عاصمة فرنسا وحسب، بل بوصفها عاصمة كامل أوروبا على غرار مدينة القاهرة المصرية التي عدها أجمل مدن العالم العربي. لقد جعلت الأبهة العمرانية لمدينة باريس فضلاً عن تاريخها المجيد المثخن بالثورات الاجتماعية والسياسية، فضلاً عن الإنجازات العلمية لأن تكون محجة أغلب الرحّالة العرب من قبلهم الأتراك منذ بدايات الاتصال بين الشرق والغرب.

ومثلما طوّع الجغرافيون العرب والمسلمون في الفترات السابقة أقلامهم لوصف المدن والشعوب التي زاروها أو مروا بها، فقد حافظ الطهطاوي على نفس الأسلوب الفني والأدبي لأسلافه في ذكر أخبار باريس ووصفها. بل كان على بينة من صعوبة مهمته، كأول كاتب عربي يزور المدينة وجب عليه التعريف الدقيق والوقوف عند أدقّ التفاصيل، وابتكار المصطلحات الضرورية لوصف مشاهد من الحياة الغربية، – في كل ما يهم "قاعدة حكم الفرنسيين "كما كان يسميها –، بدءا بأصل التسمية وخصائصها الطبيعية، وموقعها على خريطة العالم، وصولا إلى عادات سكانها في المأكل والملبس والمعمار، دون أن يسهى عن ذكر خصائص الحكم والتدبير ومؤسسات التسيير في المملكة.

ركّز الكاتب منذ الصفحات الأولى لمؤلفه على أصل التسمية فذكر: «اعلم أنّ هذه المدينة تسمّى عند الفرنسيس باري، بالباء الفارسية التي تلفظ بين الفاء والباء، ولكن يكتب هذا الاسم باريس، ولا ينطق بالسين أبدا فيه كما هو عادة الفرنساوية من أنهم يكتبون بعض الحروف ولا يلفظون بها أبدا.[١٩]" وأشار المصري إلى معنى التسمية بقوله :"وسميت بذلك لأن طائفة من قدماء الفرنساوية كانت على نهر "السين" تسمّى الباريزيين، ومعناه في اللسان القديم الفرنساوي سكّان الأطراف والحواشي[٢٠]". ثم انتقل الطهطاوي إلى تحديد موقع المدينة من خلال دوائر الطول والعرض أسوة بما كان يفعله من سبقه من الجغرافيين العرب، فهي: «موضوعة في التاسعة والأربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالي، يعني بعيدة عن خط الاستواء جهة الشمال بهذا القدر، وأما طولها فإنه يختلف... فيكون طولها صفر[٢١]". وتطرق الكاتب إلى شرح خصائصها المناخية، فوجد باريس" ليست في غاية الحرارة ولا في غاية البرودة، فإن أقصى درجات الحرّ فيها إحدى وثلاثين درجة ونصف، وهذا نادر، والحرّ الأوسط تسعة وعشرون درجة، وأقصى درجات البرد بها في الغالب اثنا عشر درجة، وندر بلوغه ثمانية عشر، والبرد الأوسط سبع درجات[٢٢]". ولم يغفل الكاتب الحديث عن عنصر مناخي آخر مؤثر في حياة المدينة، وهو المطر وكيفية تطويع هندسة المباني لدفع ضرره. كما لم يحد الطهطاوي بدوره عن الرأي الشائع عند العرب ومن قبلهم الإغريق القائل بتأثير الهواء على مزاج الإنسان وطبعه، فوجد في هواء باريس أقوى برهان على ذلك، "وتغيّر مزاج الهواء والزمن في باريس أمر عجيب، فإنه قد يتغير في اليوم الواحد أو ما بعده، حال الزمن مثلا يكون في الصباح صحو عجيب لا يظن الإنسان تغيّره، فلا يمضي نصف ساعة إلا ويذهب بالكليّة ويخلفه المطر الشديد... وهكذا، فقل أن يأمن الإنسان تغيّر الوقت بهذه البلاد، فمزاجها كمزاج أهلها[٢٣]". ولم يغب عن ذهن الطهطاوي عند وصفه لمكوّنات المشهد الطبيعي الباريسي تلك المقارنة مع ما تختص به القاهرة. فباريس في ذهن الكاتب تضاهي مدينة القاهرة أو تشبهها في عديد المعطيات الطبيعية، خصوصا وأنّ كلتيهما يشقهما نهران كبيران هما السان والنيل، وهي فرصة بالنسبة إلى الكاتب لمفاضلة نيله واعتبار ماءه من أعظم الأدواء[٢٤].

عمل الطهطاوي على الإلمام بكل مكوّنات المشهد الطبيعي والجغرافي لباريس، وعدم إغفال أي معطى قد يسهم في تقريب صورة المدينة إلى ذهن قارئ مؤلفه. ويبدو أنه نجح في هذه المهمة باعتبار أن الكتّاب الذين جاؤوا من بعده واطلّعوا على كتابه، رأوا أنه من غير الضروري تكرار أو إضافة شيء يذكر عمّا ذكره الطهطاوي. فقد أحال أحمد فارس الشدياق في أكثر من موضع في مؤلفه "كشف المخبا" إلى ضرورة العودة إلى "تخليص الإبريز" لمعرفة المعطيات المتعلقة بجغرافية باريس خاصة والمملكة الفرنسية عامة[٢٥]. ورغم سخاء الطهطاوي في الإحاطة بالعاصمة الفرنسية من وجهة نظر جغرافية، فقد غاب عنه المعطى التاريخي. لذلك تركز اهتمام الشدياق على إضاءة أهم المراحل التاريخية للمدينة، بدءا من تاريخ بنائها وتطوّر الأحداث السياسية فيها إلى حين وصوله إليها في منتصف القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أهمية ما ذكره، إلا أننا سجلنا قصورا في احترام التسلسل الزمني، خصوصا عند تفصيله لأطوار بناء المدينة وتوسّعها، ولكنه نجح في سرد أهم المحطات الكبرى لتطوّر الظاهرة العمرانية بالمدينة، وتواريخ تشييد معالمها الكبرى، رمز تميّز باريس عن بقية الحواضر الأوروبية.

تنوّعت المعالم العمرانية والمنشآت العمومية في مدينة باريس وتميّزت بفخامتها وانتظامها، وتنوّع وظائفها، فازدانت المدينة بالشوارع الكبرى والساحات العامة والمنتزهات والقصور والكنائس الكبرى والمتاحف والمسارح، التي اتسمت بروعة هندستها، والمزدانة بالرسوم واللوحات الفنية الرائقة والقيّمة، فزادت في قيمتها المعمارية وجمالها.

١/٢-الشوارع والمنتزهات والحدائق العمومية

ازدانت مدينة باريس بالشوارع الفسيحة المبلطة والحدائق العمومية الكبرى والمنتزهات، وان قد أتى الزوّار العرب على ذكر عدد منها، ووقفوا عند وصف بعضها بالتفصيل والإسهاب. ونظرا لكثرتها، فإننا سنتوقف بالدرس على عينة واحدة من تلك الشوارع والساحات العامة والمنتزهات، والتدبّر في الوصف الذي أورده الرحّالون، والتمّعن في الدور الوظيفي "للبولفار Boulevard" وساحة "لاكونكورد Place de la Concorde" وحديقة "شانزليزيه Champs Elysées".

لقد تبيّن للشدياق أفضلية شارع "البولفار Boulevard" الباريسي كأكثر شوارع باريس حيوية ونشاطا. إذ اتسم ذلك الشارع بمكانة هامة في العاصمة الفرنسية ليس فقط لدوره في ربط أجزاء المدينة وتسهيل التواصل بين أحيائها وأطرافها، وإنما لدوره المحوري في استقطاب الحركية التجارية والترفيهية والثقافية، منذ منتصف القرن الثامن عشر. فقد بدا البولفار في عين الشدياق كالآتي: "طريق واسع طويل ممتد يحيط بباريس كالمنطقة للخصر، كلا جانبيه محفوف بالشجر المتوازي الوضع، وبالدكاكين الظريفة، والديّار الشاهقة ومواضع القهوة الأنيقة الحافلة فلا تزال ترى أمامها ألوفا من الكراسي يجلس عليها الرجال والنساء وهناك يقرؤون صحف الأخبار ويتفاوضون في إدارة المصالح والأشغال[٢٦]". وخلافا للمدن العربية التي تشقها الأزقة والطرقات الضيقة، وتحظى بنسق أعمال مخصوص، فتكون حافلة بالأنشطة الحرفية والتجارية طيلة النهار، ثم تأخذ حيويتها بالنكوص والأفول عند المساء، فإن المدن الأوروبية عامة ومدينة باريس خاصة "لا تزال غاصة بالناس إلى نصف الليل. وقد يكون لها رواشن أو مشربيات فيها مقاعد يرى الإنسان منها جميع ما يمر في الطريق، وأكثر الملاهي هناك من جملتها مواضع للغناء واللعب[٢٧]".

يكون "البولفار" هادئا في الصباح، قليل الحركة إلا من جلبة عمال التنظيف الذين يتكفلون بتنظيف الطرق بالكنس والرش قائمون بذلك ليلاً نهاراً[٢٨]، ثم يستعيد صخبه في المساء، ليبلغ ذروته عند الليل. فيكون وجهة شرائح اجتماعية مختلفة للنزهة أو لقضاء الحاجات. فهو المكان الأفضل الذي تعقد فيه الصفقات، وتقام فيه العروض الفرجوية، ويقصده طالبو السهر والمتعة.

ومن الأماكن العامة الأخرى التي يقصدها الباريسيون للترفيه نجد الساحات الكبرى، فتوقّف الشدياق عند وصف ساحة لاكنكورد ذكر: "وهي بين الغيضة المذكورة "شانزليزيه Champs Elysées" وبين حديقة "التولري Tuileries"، يجوز الناس من هذه إلى تلك ومن تلك إلى هذه. وفي هذه الساحة حوضان كبيران وسع كل منهما خمسون قدما وفيها تماثيل من نحاس تقذف بالماء صعدا فيقع على شبه جرن عليه تماثيل أربعة أولاد وبطة يخرج الماء من أفواهها فيلتقي كلا المائين وينحدران إلى الحوض[٢٩]". ولئن برع الفرنسيون في العناية بالحدائق وتجميلها بلوحات فنية متميزة، إلا أن ذلك لم يعفهم من اللجوء إلى اللمسة الفنية الشرقية، فالشرق هو موطن ولادة الفنون والإحساس المرهف والراقي. لذلك فجمال المدن الغربية لا يمكنه أن يكتمل إلا بإضافة الرموز الفنية الشرقية، مثل مسلة كيلوبترا وهي عبارة عن عمود "جلب من مصر عليه حروف بلسان قدماء مصر... وكانت إحدى اثنتين، جاد بهما محمد علي باشا على دولة فرنسا تذكارا لألفتهما ومودتهما[٣٠]". ففي تلك الحديقة وفق وصف الطهطاوي تجد "شيء من الملاهي لا يمكن حصره، وسائر أشجار هذا البستان متصافة متوازية بعضها مع بعض، رتّبت بحيث أنه يوجد مدخل من كل الجهات... وهذه الحديقة يتّصل أحد جوانبها بنهر السين... وفيها كثير من القهاوي "والرسطورانات" يعني بيوت الأكل، وفيها سائر أنواع الطعام والشراب، وهي مجمع الأحباب والأكابر، وبها كثير من المرايح للخيل. ويدخل فيها الأكابر بالعربات المزيّنة، وفيها عدّة آلاف من الكراسي

بالأجرة يجلس عليها في زمن الربيع نهارا وفي الصيف ليلاً[٣١]".

على العموم أولت باريس مثل سائر الحواضر والمدن الأوروبية مكانة قصوى للعناية بالمنتزهات والساحات العامة والشوارع. فهي لم تكن مجرد فضاءات للزينة أو مساحات خضراء جعلت بغاية التصدي لمخاطر التلوث البيئي جراء إفرازات المصانع التي استقرت بضواحي المدينة. وإنما أنيطت بها أيضًا وظيفة احتضان الزخم البشري وطالبي التنزه بعد فراغهم من أشغالهم، وحاجة الجماهير الباريسية إلى أماكن مهيأة لتوفير المناخات الملائمة للترفيه، توازيا مع التحوّلات الاجتماعية الكبرى جراء الثورة الصناعية. فقد أسهمت الحركات النقابية والعمّالية التي نشطت في نهاية القرن التاسع عشر بدورها في تحقيق مكاسب لفائدة العمّال، التي سمحت بتخليص شرائح عمّالية واسعة من ربقة استعمار الآلة البخارية والمصانع. فلم يعد وجود العامل في المدينة يقتصر على القيام بأشغال المصنع فحسب، بل ظهرت تصورات وليدة جعلت الترفيه يرتقي إلى مرتبة الحاجة، تشترك فيه كل الفئات والطبقات الاجتماعية، وأضحت أوقات التسلية تحتل موقعها في جدول أوقات اليومي لسكان المدينة عموما. فقد تزايدت أعداد فضاءات التسلية والترويح عن النفس وكسر الرتابة وامتصاص الإجهاد اليومي، فانتشرت الحانات والمقاهي ودور القمار والدعارة التي تزايدت أعدادها في كبرى الشوارع وعلى أطراف المدينة.

٢/٢-القصور والكنائس والمتاحف

عجّت نصوص رحّالينا بوصف مختلف المنشآت العمرانية الحضرية الأوروبية التي احتلت مواقع بارزة بقلب المدينة، عاكسة ثراء المخزون العمراني الغربي. فقد عدّد الرحّالة العرب أمثلة من تلك المنشآت ووصفوها بدقة متناهية، فوجدنا اهتماما بوصف: المسارح والمكتبات العامة أو "الكتبخانات"، ودور الطباعة والمتاحف وحدائق الحيوانات أو ما سمي بـ"جنان الوحوش" والمدافن والمقابر والأعمدة والأبواب وأقواس النصر والمدارس والجامعات والكنائس ودور العبادة وغيرها. ولاحظنا أيضًا انشداد كل كاتب إلى منشآت دون أخرى، ولتكون دراستنا إجرائية، خيّرنا التركيز على ثلاثة أصناف من المنشآت العمرانية بمدينة باريس التي استقطبت اهتمام رحّالينا وشكّلت أحد أبرز مواطن التقاطعات في مدوناتهم وهي: القصور والكنائس والمتاحف.

وُسمت باريس بـ "مدينة القصور" على حدّ تعبير معظم الزوّار العرب، فحيثما قلّب الإنسان ناظره رأى قصرا شاهقا أو بنيانا شامخا، وإتقانا زائدا على حدّ تعبير أحمد زكي. فقد اضطلعت تلك المعالم الضخمة بأدوار عديدة منها الترفيهي،: "كقصر التولري (وما بقي) منه بعد الحريق الذي التهمه أثناء ثورة "الكومون" في شهر ماي سنة ١٨٧١، وقد أقيمت مكانه الآن حديقة أنيقة مزدانة بأنواع الأزهار تتخللها تماثيل رمزية وفساق وتدفع الماء إلى حيضان بهيجة تسر الناظرين[٣٢]"، ومنها المالي مثل "قصر البورصة فهو على شكل معبد يوناني بما في واجهته وحوله وفي داخله من السواري والأساطين، وطوله ٦٩ مترا وعرضه ٤١ وفي أركانه من الخارج تماثيل أربعة: للتجارة والعدالة القنصلية والصناعة والزراعة، وفي داخله قاعة كبيرة للعمليات المالية، تسع ألفي شخص وعلى جدرانها تصاوير بالغة في الإتقان.[٣٣]"، ومنها الخيري كـ"قصر الأنفاليد Les invalides"(العساكر السقط كما عرّفهم الطهطاوي)، فقد شيّده الملك لويس الرابع عشر في سنة ١٦٧٠، فإن هذا الملك العظيم أراد أن يضمن حياة طيبة للعساكر الذين تبتر بعض أعضائهم أو تصيبهم بعض العاهات ولا يكون لهم وسيلة للعيش[٣٤]". ومنها السياسي كـ"قصر لكسمبورغ وهو الآن مستقر لمجلس السناتو (مجلس شيوخ فرنسا)، أمرت بتشييده ماري دو مدسيس زوجة هنري الرابع على مثال القصر الذي تربت فيه في فلورنسا، ... وفيه مكتبة تحتوي على أكثر من ٥٠,٠٠٠ مجلدا وفوقها قبة مغشاة بأشكال ناضرة فاخرة. واتخذ نواب المملكة الفرنسية من قصر بوربون مقرا لهم وله واجهتان إحداهما تطل على نهر السين والأخرى على ميدان باسم القصر، والأولى هي الواجهة الأصلية وفوق عمدانها نقوش ورسوم تمثل فرنسا وفي يدها الدستور وحواليها تماثيل الحرية والسلام والحرب والفنون والفصاحة والصناعة والتجارة، وقاعة الجلسات كلها من المرمر وحولها عمدان منضودة[٣٥]". ومنها الاقتصادي

كـ"قصر الصناعة فهو معد للمعارض السنوية والفصلية، أقيم في سنة ١٨٥٥ بمناسبة المعرض العام من مال شركة مؤلفة من كثير من المساهمين ثم اشترته الدولة... وعلى بابه تمثال كبير يمثل فرنسا وهي توّزع أكاليل الفخار من الذهب النضار على الصناعة والفنون وهما جالستان تحت أقدامها، وعلى الجدران المحيطة بالقصر أسماء الذين برعوا في العلوم والفنون والصناعة[٣٦]". ويبقى قصر "اللوفر" من أبهى القصور الباريسية وأفخمها، إذ كان المكان المفضل لإقامة لملوك وحكّام فرنسا[٣٧].

اضطلعت القصور الباريسية بأدوار مهمة ومتنوعة كنا أشرنا إليها سالفا، ومثلت في نفس الوقت رموزا معمارية استوعبت مؤثرات فنية يونانية قديمة ورومانية وقوطية، فكانت بمثابة إعلان الثقافة الفرنسية الحديثة لانغراسها في ثقافات أوروبية عريقة ضاربة في التاريخ، مثلما ألمح إلى ذلك معمار الكنائس. حيث تميزت الكنائس والمعالم الدينية عموما، بوفرتها في العاصمة الفرنسية رغم الاتجاه العام نحو العلمنة منذ أحداث الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، إذ وجد بمدينة باريس سبعون كنيسة وفق إحصاء أحمد زكي، وهي متشابهة من حيث الضخامة والهندسة والبناء والتزويق والتأثيث، خضع مجملها لوصف كتّابنا واهتمامهم، ومنها كنيسة "البيعة المقدسة" وكنيسة "سنت أوستاش" وكنيسة سنت جرمان لوكسروا" وكنيسة "سان لويس" وكنيسة "البانتيون"، ولكن تبقى كنيسة "نوتردام" الكنيسة الأكثر جاذبية عند أحمد زكي، فقد: " كان البدء في بنايتها سنة ١١٦٥[٣٨] ثم توالى عليها التدمير والترميم والتكميل والتحويل والتبديل حتى استقرت على ما هي عليه الآن منذ سنة ١٨٤٥. وطولها ١٣٣ متر وعرضها ٤٨ وارتفاعها ٣٣,٧٧ مترا في المتوسط، ولم يحصل تدشينها إلا في سنة ١٨٦٤ وهي من أجمل العمائر التي في فرنسا على الطراز القوطي المتفرّد بالشكل البيضاوي، ويحف بواجهتها برجان ضخمان وفيها كثير من تماثيل القديسين والقديسات وغيرهم وملوك وأمراء "[٣٩]. وقد تميز هذا المعلم بزخرفة الجدران الداخلية التي كانت متشابهة إلى حد كبير مع الأنماط الفنية المشرقية، حيث صممت أشغالها على" الخشب تبهر الأنظار خصوصا التراكيب والترابيع المعروفة بالعربية التي هي عبارة عن خطوط مشتبكة متداخلة في بعضها على طريقة أهل المشرق والأندلس[٤٠]". ولقد اضطلعت تلك العمارة الدينية بأدوار اجتماعية وثقافية مختلفة، فعلاوة على الصلاة فإن الكنائس الكبرى في أوروبا – وعلى خلاف مساجد المسلمين وجوامعهم التي ينهى فيها عن دفن الموتى– قد احتضنت رفاة مشاهير العلماء والسياسيين والقادة العسكريين، ففي" كنسية "سان أوستاش" في باريس دفن بها "كثير من مشاهير الفرنساوية مثل كولبير وزير لويز الرابع عشر والقصصي لافونتين الطائر الصيت المخلد الذكر وغيرهما من كبراء رجال السيف والقلم والحل والعقد والأدب والحسب"[٤١].

تميّزت الذهنية الأوروبية عامة والفرنسية خاصة بسعيها إلى حفظ الذاكرة الجماعية والاحتفاء برموزها، والاجتهاد في تخصيص فضاءات مهيأة لحفظ مختلف الإبداعات والفنون المحلية والعالمية، وعرضها للناس، وهي ذهنية لم يعهدها الرحّالة العرب في بلدانهم. فمن طبع العرب إجلال تاريخهم الذاتي ورموزهم وأبطالهم، وهو ما يظهر في تواتر أخبار الأجداد والأسلاف في الحكاية والقص، ولكنهم يتوجّسون تجسيده، بمعنى أنهم لم يتعودوا مشاهدة مكونات المتاحف، ما يعلل انبهارهم بمحتوياتها، وخصوصًا المتاحف الفرنسية والتي حوت آثارا ومحتويات أوروبية وحتى شرقيّة. ولقد توقّف كتابنا عند ضخامة تلك المعالم وزينتها بمختلف الرسوم والتحف والتماثيل التي حملت بصمات عديد الرسامين الفرنسيين أو الأجانب المشهود لهم بالكفاءة في ميدان الرسم أو النحت، ممّا ينبئ بأهميتها وأدوارها التثقيفية في نظر الحكّام الغربيين والنخب العالمة.

تنوّعت أصناف المتاحف وفق تخصصات مدروسة، وكان أحمد زكي قد خصّها بوصف مستفيض وذكر منها: متحف "لكسمبورغ Musée du Luxembourg "ومتحف "دار كلوني La maison de Cluny" و"قصر الحمامات Le château des Bains"، ومتحف "الآلات والفنون الصناعية Musée des Arts et des Métiers"، وغيرها من المتاحف التي اختصت في فنون وعلوم شتى[٤٢]. وكان "اللوفر "Louvre من أبرز المتاحف التي

حظيت باهتمام أحمد زكي الذي رأى فيه الأحق بالوصف والتعريف، إذ "يحتوي على أكمل مجموعة في العالم من حيث الفنون الصناعية. وقد كان إنشاؤه في قصر اللوفر في سنة ١٧٩١ بأمر من الجمعية الأهلية فجعلوه مقرا لجميع الأعمال الغريبة التي كانت متفرقة في قصور الملوك. ثم جاء أساتذة الفنون المتقنين (الصواب المتقنون) وحلّوه برسوماتهم ونقوشهم، وكثر المتبرعون بفرائد الصور وذخائر الأشكال حتى أصبح من أكمل وأجمل متاحف الدنيا[٤٣]".

خلّدت المتاحف الباريسية مجمل الأعمال البشرية الخارقة على مر السنين، وأبرز الأحداث المهمة التي جدت في العالم وكان لها تأثير مباشر في توجيه تاريخ الشعوب. فضم "اللوفر" في قاعاته العديدة كما شاهده أحمد زكي "أواني الفخار وألواح الرسم والتصوير مما وراء العقول، ولا تسلني الآن عما فيه من مخلفات قدماء المصريين والرومانيين والأشوريين والبابليين وغيرهم من أمم السلف ... وفي الدور الثاني منه متحف للبحرية فيه صور المراكب وجميع آلات البحر وأدواته عند جميع الأمم وفيه خريطة كبيرة مجسمة من الجبس تمثل قنال السويس وأعماله ومدائنه أهداها له دولسبس وفيه متحف صيني، أمّا أثمان الأعمال التي فيه وزخرفة القصر فهي من قبيل ما ورد في ألف ليلة وليلة"[٤٤].

لقد عاينا في عروضنا السابقة مدى إطناب كتّابنا في وصف المنشآت العمرانية الكبرى لمدينة باريس والمدن الأوروبية عامة، فشملت جلّ المرافق الحياتية: من جسور وكنائس ومصانع وقصور ومتاحف ومسارح ومنتزهات وحدائق وشوارع وغيرها من العلامات الدالة على التقدم العمراني وازدهاره بأوروبا الغربية، تزامنا مع واقعة التمدّد الأوروبي ونهضته الاقتصادية. ولكن غاب عن السفراء العرب ذكر مساكن الفقراء والعمال والنازحين وضعاف الحال وأحيائهم، التي احتلت بدورها قلب المدن والحواضر الأوروبية، غير بعيدة عن المنشآت العمرانية الكبرى. فبعكس المدوّنات العربية، لم تخل المؤلفات الأوروبية التي اهتمت بالمواضيع العمرانية أو بدراسة الحواضر الغربية من ذكر للأكواخ والأحياء القصديرية، إذ كانت محل جدل بين من دعا إلى إزالتها لإنقاذ جمال المدينة والحفاظ على تناسق معمارها التليد، وبين من طالب بإعداد أماكن مهيأة لاحتضان العمال والفئات الفقيرة قبل التفكير في جمالية المدينة. إلا أن هذه المسألة كانت غائبة تماما في مؤلفات رحّالينا، ولا يمكن أن نفهم ذلك التجاهل إلا بطرح إحدى الفرضيتين: أولاهما ترجعه إلى انتماء جلّ الرحّالة العرب إلى "فئة النخب" أو الأعيان، وعليه فهم لم يكونوا مهتمين لأمر الفئات التي يعتبرونها من "الرعاع" أو من "العامة" ووسموها بـ"الأوباش"، إذ أبدى الشدياق وأحمد زكي في أكثر من موضع امتعاضهما من ارتياد هؤلاء "الرعاع" لأماكن يقصدها "عليّة القوم" من الأوروبيين إيمانا منهما بضرورة التمييز الطبقي. وتصب الفرضية الثانية في هوس الرحّالين العرب بتقدم الآخر وتفوّقه في عدد من المجالات والفنون، وعليه فإن ذلك الهوس جعلهم غير مهتمين إلا بمواطن قوة الآخر دون الالتفات إلى ما سواه.

خَاتِمَةٌ

تتفق الدراسات التي اهتمت بمقاربة نصوص الرحلة العربية إلى أوروبا في القرن التاسع عشر على أهمية تلك المدونات في تصوير مختلف المشاهد الثقافية للغرب الناهض والمتمدّد، حاملة لرؤى مختلفة من حيث أولوية دواعي نهضة الآخر ومظاهرها وسبل النهوض الممكنة في أوطانهم. وفي خضم عنايتهم بدراسة الغرب حازت المدن الأوروبية على مكانة محورية في كتابات الموفدين العرب، وفيها تشابهت -وفق ما تبينه كتّاب الرحلة العربية -جدولة زمنها الأسبوعي بتخصيص أغلب أيامه للعمل والسعي وراء تحصيل القوت، وجعل يوم الأحد للعبادة عند البعض والإقبال على الترفيه عند البعض الآخر. ولقد وجد أحمد زكي باشا في تلك الزمنية سببا أساسيا لنجابة الأمة الأنقليزية في العالم على اعتبار احترامها للوقت وحسن استغلاله في قضاء أمور جدّية، منددا في ذات الوقت بكسالة جمهور كبير من الشعب المصري ورأى في ذلك السبب الأصلي لتخلف موطنه. وعلى خلاف موقف المصري أحمد زكي، فقد احتج أحمد فارس الشدياق على مبالغة الأنقليز واجتهادهم في استغلال كامل وقتهم وتخصيصه للعمل والتكّسب دون سواهما، مثلما كان الحال في أحياء السيتي بلندن

حيث لا يتوقف مرتادوها عن العمل ولا يتركون أدنى وقت للراحة والركون إلى الهدوء.

ثم انتبه الكتّاب العرب للحديث عن غيرية ثانية كانوا قد عاينوها في المدن الغربية، تتعلق بتخطيط المدينة الأوروبية وهندستها المعمارية والتنافس بينها لأجل إنشاء معالم عمرانية، تترجم ميل تلك الثقافات إلى التعبير عن انغراسها في تاريخها الإغريقي – الروماني. فقدت تمركزت في وسط المدينة المؤسسات الحيويّة المدنية والدينية والثقافية والتجارية، وتوزعت الأحياء السكنية المنتظمة بجوار الشوارع الفسيحة، وانتصبت في الضواحي وعلى أطراف المدينة المنشآت الصناعية القديمة خصوصا تلك التي اختصت بصناعة النسيج والتعدين، والمشغلة لآلاف العمال الوافدين من الأرياف والأقاليم المجاورة، كان له أثره في ظهور تحدّيات جدّية وأيضًا سلوكات وظواهر اجتماعية غريبة. فقد كانت المدينة الأوروبية كما رآها كتّابنا مرآة عاكسة لاكتمال النهضة التي ظهرت بالقارة منذ قرون، وهي أيضًا تعبير مباشر عن الحركة الاندفاعية للثقافة الغربية، التي وظفت كل الوسائل والأساليب لاستجلاب المواد والتحف وبعض قطع الأثاث من وراء البحار والمحيطات، لأجل اكتمال عمارة مدنها وزينتها من خلال إنشاء المتاحف والمعارض العالمية.

لقد دفع بهرج المدينة الغربية وانتظام معمارها وحيويتها الاقتصادية والاجتماعية وبانتظامها، ونجاعتها في تسهيل حياة ساكنيها بكتّاب الرحلة العربية إلى الانبهار بها. فبفضل استخدام وسائل نقل حديثة، أصبح لسكان الحواضر الوسائل الكفيلة لمقارعة المسافة والزمن. ولقد تضخم ذلك الإعجاب عندما انتبهوا إلى وجود مؤسسات خيرية رسمية وتطوّعية، تسعى إلى توفير الملجأ الآمن لطالبي المساعدة وإسعاف المهمشين والمرضى.

فرغم كل محاسن المدينة الغربية كما تم ذكرها وتعدادها في مؤلفات الرحلة العربية، ولأن إصدار الأحكام في شأن المخالف ضرورة في زمن المواجهة على حد تعبير المفكر سعيد بنسعيد العلوي، فإن المدينة الأوروبية "العظيمة والبارة بأهلها" لا يمكنها أن تظفر برضاء تام من لدن السفراء والكتّاب العرب. فمدينة "فالتة" المالطية وباريس ولندن وغيرها من مدن أوروبا هي أيضًا مدن اللهو والمجون والعربدة والفحش وموطن الدعارة والمهن المخلة بالشرف، وسكانها في مجملهم يفتقدون لقيم المروءة وبعيدون كل البعد عن كرم العرب وأشكال الاحتفاء بالضيف وعابري السبيل. فباريس التي طالما عدد الطهطاوي محاسنها وتطورها فهي أيضًا مدينة "غلاء الأسعار والكفر"، والباريسيون و إن كانوا يعلنون ولاءهم للديانة النصرانية إلا أن "الفرنساوية على الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم، فهم داخلون في اسم الكتابيين فلا يعتنون بما حرّمه دينهم أو أوجبه أو نحو ذلك ... ويقال إنّ غالب ممالك الإفرنج مثل باريس في مادة الأديان"[٤٥]. وحتى معارضهم الفنية التي عدت مفخرة المدن الغربية ومحل منافسة بينها كما صوّرها محمد السنوسي، فهي ليست إلا "صور اللواطة الكثير قبّحهم الله فيما صنعوا، وذلك مصداق سوء عادة أهل بومباي التي غضب الله عليها فأصابهم بما يستحقون، وما ربّك بظلاّم للعبيد"[٤٦].

في مجمل القول، إنّ توصيف المدينة الأوروبية وتقييمها من قبل الكتّاب العرب، قد تم من خلال منظارين: منظار راهني اهتم بمدى تطوّر المدينة الغربية ومجمل التحولات التي ألمت بها، جراء تداعيات الثورة الصناعية، واستفادة المدينة الغربية من التقنيات العصرية واستخدامها في قطاعات النقل لتكون أكثر فاعلية ومستجيبة لحاجيات سكانها. ولكن هذا المنظور لم يعطل في أذهان كتّاب الرحلة العربية المنظور الثاني المتأصّل والمنغرس في الذهنية المشرقية منذ قرون، والّذي يعتمد تقسيم العالم إلى دارين: "دار الإسلام" و"دار الكفر"، مع أفضلية مطلقة صالحة لكل الأزمان للعالم الشرقي. ولقد تم الاتفاق على مفاضلة الشرق رغم الاعتراف الصريح بالفجوة الواسعة التي كانت تفصل العالمين وفي صالح أوروبا القوية، فإن السياقات العالمية الجديدة قد ألقت بظلالها على الكتابات العربية خاصة بعد أن أعلنت أوروبا حركتها التوسعية في العالم محرضة، بذلك لإعادة إحياء التمثلات الشرقية القديمة حول آخرها.

الاحالات المرجعية:

(١) مثلت الظاهرة الحضرية الأوروبية من المسائل الجالبة للاهتمام في عدة تخصصات ومن المهتمين بهذا الموضوع يمكن أن نذكر كلاّ من:ألكسيس طوكفيل (١٨٠٥ -١٨٥٩) Alexis Tocqueville وهو فيلسوف ورجل سياسة ومؤرخ كان من المبشّرين الأوائل في فرنسا بعلم الاجتماع، زار عديد المدن الأوروبية وكانت له عديد الملاحظات حولها. وليون فوشي(١٨٠٣ - ١٨٥٤)Léon Faucher صحفي ورجل اقتصاد وسياسي شغل منصب وزير داخلية فرنسا سنة ١٨٥١. وفريدريك أنقلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) Friedrich Engelsفيلسوف ومنظر اشتراكي ألماني.

(٢) الشدياق (أحمد)، **كشف المخبا عن فنون أوروبا**، تقديم عصمت نصّار، دار الكتاب المصري، القاهرة ٢٠١٢، ص ٢٩.

(٣) زار الكاتب المدينة سنة ١٨٩٢

(٤) زكي (أحمد)، **السفر إلى المؤتمر**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠.ص ١٢١.

(٥) الشدياق (أحمد فارس)، **كشف المخبا عن فنون أوروبا**، م س، ص ٢٩٤.

(٦) زكي (أحمد)، **السفر إلى المؤتمر**، م س، ص ١٢١.

(٧) نفسه، ص ١١٣.

(٨) نفسه، ص ١١٦.

(٩) نفسه، ص١١٧.

(١٠) نفسه، ص١٢٥.

(١١) نفسه، ص ١٦٥.

(١٢) الشدياق (أحمد فارس)، **كشف المخبا**، م س، ص ٣٤٥.

(١٣) نفسه، ص ٣٤٥ و٣٤٦.

(١٤) زكي (أحمد)، **السفر إلى المؤتمر**، م س، من ص ١٤٠ إلى ١٤٢.

(١٥) الشدياق (أحمد فارس)، **كشف المخبا عن فنون أوروبا**، م س، ص ٢١.

(١٦) زكي (أحمد)، **السفر إلى المؤتمر**، م س، ص ١٤٥.

(17) Léon Faucher, *Etudes sur l'Angleterre*, Paris, 1856, T I. P196.

(١٨) زكي (أحمد)، **السفر إلى المؤتمر**، م س، ص ١١٤.

(١٩) الطهطاوي (رفاعة رافع)، **تخليص الإبريز في تلخيص باريز**، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٩١، ص ٧٨.

(٢٠) نفسه، ص٧٤.

(٢١) نفسه ونفس الصفحة.

(٢٢) نفسه، ص ٧٧.

(٢٣) الطهطاوي (رفاعة رافع)، **تخليص الإبريز في تلخيص باريز**، م س، ص٧٧..

(٢٤) نفسه، ص ٨١.

(٢٥) الشدياق (أحمد فارس)، **كشف المخبا عن فنون أوروبا**، م س، ص٢٢٢.

(٢٦) الشدياق (أحمد فارس)، **كشف المخبا عن فنون أوروبا**، م س، ص٢٣٨.

(٢٧) نفسه، ص ٢٣٨ و٢٣٩.

(٢٨) الجعايدي السلوي (إدريس بن عبد القادر)، **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، تحقيق عز المغرب معنينو، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ٢٠٠٤، ص١ ٢٠.

(٢٩) الشدياق (أحمد فارس)، **كشف المخبا عن فنون أوروبا**، م س، ص ٢٤.

(٣٠) نفسه، ص ٢٤٠.

(٣١) الطهطاوي (رفاعة رافع)، **تخليص الإبريز في تلخيص باريز**، م س، ص ١٥٠ و١٥١.

(٣٢) زكي (أحمد)، **السفر إلى المؤتمر**، م س، ص ٢٥٦.

(٣٣) نفسه، ص ٢٥٨.

(٣٤) نفسه، ص ٢٥٩.

(٣٥) نفسه، ص ٢٦٧.

(٣٦) نفسه، ص ٢٦٨.

(٣٧) خص أحمد زكي باشا قصر اللوفر بشرح مطول متوقفا عند أهم الأحداث التاريخية التي جدت بالقصر وكذلك أهم مراحل بنائه وخصوصياته المعمارية، يمكن العودة إلى المصدر ص٢٥٧ و٢٥٨.

(٣٨) نلاحظ اختلاف بعض التفاصيل بين الكتّاب العرب، والذي نعزوه إلى اختلاف المصادر المعتمدة واختلاف الروايات. وهنا اختلف أحمد زكي مع الشدياق في تحديد تاريخ بناء الكنيسة. وتذكر عدة مراجع أن البناء الفعلي لكنيسة نوتردام قد انطلق سنة ١١٦٣. ويمكن العودة إلى: Alain Erlande-Brandenburg, *Notre-Dame de Paris*, Éditions Nathan/C.N.M.H.S., Paris 1991.

(٣٩) زكي (أحمد)، **السفر إلى المؤتمر**، م س، ص ٢٨٤ و٢٨٥.

(٤٠) نفسه، ص٢٨٢.

(٤١) نفسه، ص٢٨٩.

(٤٢) انظر "**السفر إلى المؤتمر**"، من الصفحة ٢٤٢ إلى ٢٥٥.

(٤٣) زكي (أحمد)، **السفر إلى المؤتمر**، م س، ٢٤٢ و٢٤٣.

(٤٤) نفسه، ص ٢٤٣ و٢٤٤.

(٤٥) الطهطاوي (رفاعة رافع)، **تخليص الإبريز في تلخيص باريز**، م س، ص١٨٥.

(٤٦) السنوسي (محمد)، **الرحلة الحجازية**، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧٦، ص١١٤.